تراث الإنسانية

الامتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

د. زكى نجيب محمود



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(تراث الإنسانية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الإنجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الإمتاع والمؤانسة
لأبى حيان التوحيدى
د . زكى نجيب محمود

كان أبو حيان التوحيدى بائسا فى حياته وبعد مماته ، أما فى حياته فقد عاش فقيرا ، وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك برغم اتساع آفاقه وعمق أغواره ، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ؛ فاسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها الجزء الثالث من كتاب الامتاع والمؤانسة ، موجها اياها الى صديقه أبى الوفاء المهندس الذى كان له فضل تقريبه من الوزير أبى عبد الله العارض وهو الوزير الذى قيلت فى حضرته أحاديث السمر الثقافى التى جمعت فى كتاب الامتاع والمؤانسة - اسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها أبو حيان كتابه هذا ، فهو يقول : « خلصنى

أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالاحسان ، اعتبدني بالشكر .. اكفني مؤونة الغذاء والعشاء ؛ الى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الزاوية ، والقميص المرقع .. ؟ الى متى التادم بالخبز والزيتون ؟ ..... أجبرني فانني مكسور ، اسقني فانني صد ، أغثني فانني ملهوف ، شهرني فانني غفل ، حلني فانني عاطل ؛ قد اذلني السفر من بلد الى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي ، وتباعد عني القريب مني ... » .

ولعل أبا الوفاء المهندس قد استجاب الى استغاثة أبي حيان فأغاثه ، بأن قدمه الى الوزير أبي عبد الله العارض ، فجعله الوزير من سماره ، وسامره أبو حيان ثماني وثلاثين (١) ؛ وبعدئذ طلب أبو الوفاء من أبي حيان

(١) في نشرة الكتاب التي أصدرها المرحومان الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين ، ذكريات أربعون ليلة ، وفي المقدمة التي كتبها الأستاذ أحمد أمين ورد أن الليالي عددها سبع وثلاثون ، لكني عددتها فوجدتها ثماني وثلاثين ، ذلك أن الليلتين العاشرة والحادية عشرة قد ادمجتا في ليلة واحدة ، ثم جاء العدد الترتيبي بعد ذلك يقول « الليلة الثالثة عشرة » ولم تذكر الليلة الثانية عشرة ، وقد بلغ العدد الختامي في النشرة السالفة الذكر « أربعين ليلة » ، فاذا طرحنا الليلة الحادية عشرة المدمجة في العاشرة ، والليلة الثانية عشرة المتروكة ، كان العدد ثماني وثلاثين . هذا من حيث عدد الليالي بحسب تقسيم الكتاب أما من حيث عددها من حيث المحادثة ، فقد كانت - على حسابي - تسعا وثلاثين

أن يسجل كل ما دار بينه وبين الوزير ، وهكذا فعل أبو حيان ، فكان من ذلك هذا الكتاب الذى نقدمه .

وقد حقق الأستاذ أحمد أمين فى مقدمته لهذا الكتاب شخصية هذا الوزير وانتهى الى أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهى ، وقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وظل ابن سعدان فى الوزارة الى سنة ٣٧٥ ؛ وقد كان له ابان وزارته ندوة يجمع فيها العلماء والأدباء ، منهم ابن زرعه الفيلسوف النصرانى ، ومسكويه ، وأبو الوفاء المهندس (الذى قرب أبا حيان من مجلس الوزير) .

وأما أبو الوفاء المهندس ، الذى من أجله كتب كتاب الامتاع والمؤانسة ، فقد قال عنه ابن خلكان « انه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفى سنة ٣٧٦ » وعلى هذا التاريخ يعلق الأستاذ أحمد أمين بقوله ان ابن خلكان قد ذكر أنه نقل تاريخ الوفاء هذا من شيخه ابن الأثير ، ولكن الذى فى ابن الأثير أنه عد وفاته فى حوادث سنة ٣٨٧ فاما أن ابن خلكان أخطأ فى النقل أو أن الناسخ أخطأ فى الكتابة .

وانه ليقال ان أبا حيان قد ألف نحو عشرين كتابا ،

لكن لم يبق منها الا عدد قليل ، منها كتاب « الهوامل والشوامل » (نشرة الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر) و « الصداقة والصديق » و « البصائر والذخائر » (نشره الأستاذان أحمد أمين والسيد أحمد صقر) و « المقابسات » و « الاشارات الالهية » (نشرة الدكتور عبد الرحمن بدوى) – وكتاب « الامتاع والمؤانسة » الذي نقدمه بهذا المقال ، وقد ألفه لابن سعدان – كما قلنا – سنة ٣٧٤ ؛ والظاهر أن أسبقها تاليفا هو الهوامل والشوامل (راجع مقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل – ص : ى) وتبعه الامتاع والمؤانسة ، ثم الصداقة والصديق ، وأما الذخائر والبصائر فقد ذكر فى مقدمته انه بدأ به سنة ٣٧٥ واتمه بعد خمسة عشر عاما ، ثم جاء كتاب المقابسات ، لأنه ذكر الهوامل والشوامل فى المقابسات ، وقد ألف الصداقة والصديق للوزير ابن سعدان ابان وزارته – ووزارته من ٣٧٣ الى ٣٧٥ .

يدور السمر فى كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيسى يحدده الوزير بسؤال يلقيه لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتناول أمورا كثيرة متنوعة ، وغالبا ما يختتم « بملحمة وداع » . وفيما يلى موجز سريع لأهم ما دار من أحاديث خلال الليالى الثمانى والثلاثين :

– ففى الليلة الأولى جرى السمر حول متعة الحديث ، وخصائص الحديث الجيد ، وخلاصة الرأى هنا ان الحديث

الجيد هو الذي يجرى على أحكام العقل ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ؛ وان الانسان ليسأم من كل شيء الا من الحديث الطلي ؛ ففى المحادثة تلقيح العقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للهم ، وتنقيح للأدب ؛ وأما الموضوعات العرضية التي تناولها الكلام فى الليلة الأولى ، فتحديدات لغوية تفرق بين معنى كلمة « عتيق » ومعنى كلمة « قديم » ، وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث الذي يكون فيه جديد والحديث الذي يذكر القديم ؛ « والتعجب كله منوط بالحديث ، وأما التعظيم والاجلال فهما لكل ما قدم » ؛ وكذلك تناول أبو حيان بالتحديد معانى هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ؛ واخيرا ختمت الليلة بملحمة الوداع ، وهى نكتة عن بناء بنى جدارا لرجل ، وبينما هما مختلفان على الأجر ، سقط الجدار ، فقال الرجل للبناء : هذا عملك الحسن ؟ فقال البناء وهل اردت أن يبقى الجدار قائما الف سنة ؟ فاجاب الرجل : لا ، ولكن كان يبقى الى ان تستوفى أجرتك .

– ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة عندئذ فى العلم والأدب ، يصفهم أبو حيان للوزير ويقول رأيه فيهم ، فمنهم أبو سليمان المنطقى الذي يقول عنه : « أما شيخنا أبو سليمان فانه أدقهم نظرا ، واقعرهم غوصا ، واصفاهم فكرا ، واظفرهم بالدرر ، واوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن

استنباط للعويص ، وجراءة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » .

ومنهم ابن زرعه ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ، ومنهم ابن الخمار ، وابن السمح ، والقومسى ، ومسكويه الذى يصفه بقوله : « فقير بين أغنياء ، وعيى بين أبيناء ، لأنه شاذ .. » ، ومنهم عيسى بن على ، ونظيف ، ويحيى ابن عدى ، ويقول عنه : « انه مشوم الترجمة ردىء العبارة ، ولكنه كان متأنيا فى تخريج المختلفة .. » ـ اى فى تخريج المسائل المختلفة .

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلماء فى « النفس » ، فأخذ أبو حيان يفصل القول فى ذلك ، ولخص ما قاله انهم متفقون على أن النفس جوهر خالد ؛ وكان من أدق ما قاله كذلك فى العلم بمسائل الحكمة انه وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة ؛ وكذلك قال فى علم الطب انه وسط بين الصواب والخطأ ، وفى الحياة أنها وسط بين السلامة والعطب ، وكذلك فرق أبو حيان بين العلم والتعليم ، « فالعلم صورة المعلوم فى نفس العالم ، وأنفس العلماء عالمه بالفعل ، وانفس المتعلمين عالمه بالقوة ، والتعليم هو ابراز ما بالقوة الى الفعل ، والتعلم هو بروز ما هو بالقوة الى الفعل » ـ وختمت الليلة بأربعة أبيات فى المنزل .

وفى الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجال السوء ، فبهرام « رجل مجوسى معجب ذميم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع الى حفاظ » ، وابن كخيا « رجل نصرانى أرعن خسيس ، ما جاء يوما بخير قط لا فى رأى ولا فى عمل ولا فى توسط ، هكذا » .

– وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث عن ابن عباد ، يسأل الوزير أبا حيان رأيه فى ابن عباد وما يقال فى ذمه أحيانا ، فيقول أبو حيان « ان الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسان .. » ويمضى فى تحليل شخصيته تحليلا مسهبا ، ويقول عنه انه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب للثناء لدرجة الاسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ؛ ويأخذ أبو حيان فى مقارنته بابن العميد ؛ ويصف ابن عباد بمرض النفس « فللنفس أمراض كأمراض البدن » ؛ وهكذا أعطانا أبو حيان صورة مفصلة عن جوانب ابن عباد : فضائله وعيوبه ، ومما ورد فى هذه الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم ؛ فالخليل فى العروض ، وأبو عمرو بن العلاء فى اللغة ، وأبو يوسف فى القضاء ، والاسكافى فى الموازنة ، وابن نوبخت فى الآراء والديانات ، وابن مجاهد فى القراءات ، وابن جرير فى التفسير ، وأرسطو طاليس فى المنطق ، والكندى فى الجوهر الفرد (الجزء الذى لا يتجزأ)،

وابن سيرين فى العبارة ، وأبى العيناء فى البديهة ، وابن أبى خالد فى الخط ، والجاحظ فى الحيوان ٠٠ الخ ٠

ومن أصدق ما جاء فى حديث هذه الليلة ، قول أبى حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبية مع التواضع فى تقديره لنفسه ، قال : « ليس شيء أنفع للمنشىء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع الى غيره ، وإن كان دونه فى الدرجة ، وليس فى الدنيا محسوب (أى ليس فيها أحد) الا وهو محتاج الى تثقيف ، والمستعين أحزم من المستبد ٠٠ » ، ومن لطيف ما قاله فى التفرقة بين كتاب يكتب وحديث يقال ، أن الكاتب لا يشفع لـه خطـاه أن يكون قد أسرع فى الكتابة ، فليس يعلم القارىء أسرعت فى كتابة ما كتبت أم أبطأت « وانما ينظر أصبت فيه أم أخطأت وأحسنت أم أسأت » ٠

– وفى الليلة الخامسة عود الى الحديث عن ابن عباد ، ثم الحديث عن أبى اسحق الصابى : أما ابن عباد فقد نجح رغم عيوبه لأن أحدا لا يقول له أخطأت ، فمن كان مجدودا جعل الناس خطاه صوابا ، وأما أبو اسحق الصابى « فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة ٠٠ وانما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو » ٠

– وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم : فالفرس تقتدى ولا تبتكر ، والروم لا يحسنون الا البناء والهندسة ؛ والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا رواية ، والترك سباع للهراش ، والهند أصحاب وهم وشعبذة ،

وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير ، وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة ، وهم ذوو قيم خلقية عليا .

ومن رأى ابى حيان ان الفضائل موزعة بين الأمم ، واذا وصفت أمة بفضيلة أو برزيلة فلا يكون ذلك الا على سبيل التعميم فى القول ، ولذلك اذا أريدت مقارنة بين أمة وأمة وجب أن يفاضل بين الكامل فى كل منهما أو بين الناقص فى كل منها ؛ وان تعصب الانسان لقومه ليجعل من العسير عليه أن يقول أى الأمم أفضل من سواه ، فلكل أمة عصر تعلو فيه ثم يجىء عصر آخر فتعلو أمة أخرى ، وهكذا ، وليس من الانصاف أن نقارن أمة ابان صعودها بأخرى ابان هبوطها .

على أن أبا حيان يعود فيخص العرب بالثناء ، ويتناول بحديثه اللغة العربية فيقول انه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد فى أى منها « نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والفضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها .. الخ » ؛ ويتصدى أبو حيان لما قاله الجيهانى فى ذم العرب ، ليتولى الدفاع عنهم أمجد دفاع وأبلغه .

— وفى الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع — أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب — فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية لأن الأولى جد والثانية هزل ، والأولى مستندة الى مبدأ

موصولة بغاية وحاضرة الجدوى ، أما الثانية فزخرفة وحيلة ، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب ولئن اكتفت الدولة بكاتب واحد ، فلا يكفيها مائة محاسب .

ويرد أبو حيان بقوله لا غنى للحساب نفسه عن الانشاء ؛ وان البلاغة مستندة الى عقل ، لأن بها تقام الحجة ؛ فهي تبدأ بأفكار عقلية ثم تمر خلال ألفاظ ، وأخيرا تستقر في خط ؛ وأما أن الدولة يكفيها منشيء واحد فليس حجة على شيء ، لأننا نحتاج الى خياطين أكثر مما نحتاج الى أطباء ، ولا يدل ذلك على أن صناعة الطب دون صناعة الخياطة ، وليس صحيحا أن الكلام الملحون يؤدى المعنى لأن المعنى يتغير دائما بتغير الاعراب .

– أما الليلة الثامنة فقد رويت فيها مناقشة فلسفية دقيقة عميقة كانت قد دارت بين أبي سعد السيرافي وأبي بشر متى بن يونس القنائي في حضرة الوزير ابن الفرات عن المنطق اليوناني والنحو العربي (وهي مناقشة وردت أيضا في كتب المقابسات لأبي حيان التوحيدي) وخلاصة الرواية أن الوزير ابن الفرات كان قد سأل مجالسيه ذات يوم ان كان بينهم من يستطيع ان يتصدى لمناظرة أبي بشر متى في المنطق ، فانه يقول ان « لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بالمنطق » ؛ فاستجاب أبو سعيد السيرافي لدعوة الوزير ثم واجه متى فقال :

حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فقال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فانى أعرف به الرجحان من النقصان ، فقال أبو سعيد ردا على ذلك ان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل ، وكأنما أبو سعيد يريد بذلك أن يقول لن صورية المنطق وحدها لا تعنى ، اذا لابد من معرفة بحقائق المواد المرتبط بعضها ببعض بتلك الصور ، والتشبيه بالميزان ناقص ، لأن من الأشياء ما لا يوزن ، واذا كان المنطق الأرسطى ملزما لمن يتكلم اللغة اليونانية فليس هو بملزم لمن يتكلم العربية .

فيرد متى قائلا ان المنطق يعني بالمعقولات ، والناس في المعقولات سواء ، فأربعة وأربعة تساوى ثمانية عنه اليونان وعند العرب وعند غيرهما من الأمم على السواء ، فيعود أبو سعيد الى الكلام قائلا : ان التشبيه بأربعة وأربعة وأنها تساوى ثمانية عند كل الأمم هو تشبيه لا يؤدى ، لأن حقائق الرياضة بينة ، على خلاف المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ، على أننا اذا كنا نعنى بالمعقولات تلك المعانى التى يوصل اليها باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، فقد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة ، فكيف ندرس منطق اليونان دون لغتهم ، فضلا عن أننا ننقل المنطق اليونانى عن اللغة السريانية ، والمعانى أنما

يصيبها التحول عند الترجمة من لغة الى لغة ؟ وهنا يقول أبو بشر متى ان الترجمة عن اليونانية تكفينا فى هذا الصدد ، ويعود أبو سعيد الى الرد قائلا : افرض أن الترجمة تكفينا فى ذلك ، فهل اختص اليونان دون سواهم بالعقل ؟ اليس العلم مقسما بين الأمم ؟ أليس اليونان كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون ، ومع ذلك فليس واضع المنطق امة بأسرها ، بل هو رجل واحد ، هذا الى أن منطقه لم يغير من العالم شيئا ، لأن الأمر مرهون بالفطرة ، وحال الناس من حيث الفطرة هى بعد ظهور المنطق كما كانت قبل ظهوره ، اننا نعلم أن عقول الناس متفاوتة فكيف تزعم أن فى وسع المنطق أن يسوى بينها جميعا ؟

ويسأل أبو سعيد مناظره فيقول : هل فى وسع المنطق الأرسطى أن يدلنا على معانى حرف الواو فى اللغة العربية ؟ فقال له متى : هذا نحو وليس هو من شأن المنطق ، فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نحو والنحو هو منطق ، فاذا كانت المعانى مشاعا بين الأمم ، فلا تكون يونانية ولا هندية ، وانما يكون الاختلاف فى اللغة التى يعبر بها كل قوم عن تلك المعانى ، اذن فدراسة اللغة لا مندوحة عنها ، ويضرب أبو سعيد مثلا بالحرف فى اللغة العربية : الواو والباء وحرف « فى » فلكل منها أحكام تقضى بها قواعد اللغة العربية ، وليست هى

متاحا للعقل اليونانى ، مما يبين أنه لا بد للمنطقى من دراسة اللغة التى بها يكون التفكير ، فالنحو يمس المعانى ولا يقتصر أمره على اللفظ .

انه بغير مادة الفكرة لا يوصل الى حل لأى مشكلة ، فالمنطق فى صوريته المجردة لا يرفع خلافا بين متناظرين ولا يؤدى بصاحبه الى معتقدات بعينها ، وخلاصة القول عند أبى سعيد السيرافى أن دراسة المنطق دون دراسة اللغة العربية لا تجدى نفعا .

وبعد الفراغ من هذه المناقشة الفلسفية ينتقل الحديث فى تلك الليلة الثامنة الى وصف لشخصية أبى سعيد السيرافى والى آخرين غيره كأبى على النحوى ، وعلى بن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباتة وغيرهما ، فكأنما هى سجل حافل لحركة علمية ثقافية واسعة المدى .

وفى الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان وما تتميز به ، وكيف أن صفات الحيوان موجودة مثلها فى الانسان ، اذ فى الانسان وحده تجتمع صفات الحيوانات كلها ، فهو انن مختلف عنها لا بالنوع ولكن بكثرة ما فيه من صفات ، تجمعت فيه وتفرقت فى الحيوان ، فللسبع والفارة صفة الكمون ، وللذئب صفة الثبات ، وللخنزير صفة الحذر ، وهكذا ، وانظر مثلا الى الصفات

التى لا بد من توافرها فى القائد تجدها كلها مما يتصف به الحيوان أيضا : « ينبغى للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركى ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن « بعروا » - وهى دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء » .

نعم ان من أهم ما يفرق بين الحيوان والانسان ان الأول يعمل مدفوعا بالهام على حين أن الثانى يعمل بعد اختيار ارادى منه ، لكن للانسان من الهسام الحيوان نصيبا ، كما أن للحيوان من اختيار الانسان نصيبا .

وذكر أبو حيان أن للانسان أنفســا ثلاثا : النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية ، وأن لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصــال النفس الناطقة أن تبحث عن حقيقة الانسان والكون والله ، وكذلــك من وظائفها أن تضبط نوازع النفســين الأخريين ، وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتنــاول الفضائل وأضدادها واحدة واحـدة ليحــدد مقوماتهــا وعناصرها ، فما الحسن وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن .. الخ .

ويختم أبو حيان القول في الأخلاق بأن يصنف الناس من حيث أخلاقهم بحسب أمزجتهم ، فاذا غلبت الحرارة على الانسان كان شجاعا بذالا ملتهبا سريع الحركة والغضب قليل الحقد زكي الخاطر حسن الادراك .

واذا غلبت عليه البرودة كان بليدا غليظ الطباع ثقيل الروح .

واذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجانب سمح النفس سهل التقبل كثير النسيان .

واذا غلبت عليه اليبوسة كان صابراً ثابت الرأي صعب القبول .

ومما هو جدير بالذكر عن هذه الليلة ان أبا حيان يذكر فيها أنه قد أضاف من عنده عند الكتابة ما لم يرد في غضون الحديث ، وذلك استكمالا للموضوع .

– وفي الليلتين العاشرة والحادية عشرة قريء بحث عن خصائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجي ومنها ما هو متصل بالطباع .

– وفى الليلة الثالثة عشرة (٢) قرىء بحث فلسفى عن النفس ، فهى تعمل بغير عضو خاص (من أعضاء البدن ، ولذلك فهى لا تفسد بفساد البدن ، هى جوهر لا مادى ، وغير قابل للمقاييس الكمية ، ينتقل الحديث الى الحركة ، فهى أما من داخل : وعندئذ تكون أما حركة داخلية متواصلة واما حركة داخلية تسكن أحيانا ، أو من خارج : وعندئذ تكون اما حركة بالدفع من خلف أو بالجر من أمام ، وحركة الجسم الانسانى انما تكون بفعل نفس ، واذن فالنفس حية ، وهى جوهر قابل لأن تطرأ عليه الأضداد دون أن يتغير هو فى جوهريته ، وقوام النفس بذاتها لا بكونها حالة فى بدن ، ومن الفوارق بين الجسم والنفس أن الجسم لا يقبل صورة الا اذا زالت عنه الصورة التى كانت حالة فيه ، لأن الضدين لا يجتمعان فيه ، أما النفس فتقبل الصور الأضداد دفعة واحدة .

– أما الليلة الرابعة عشرة فقيدأ بمعنى السكينة وأنواعها ، فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة الهية ، أما الطبيعية فهى اعتدال المزاج فى

---

(٢) قد رتبت خطأ فى نشرة الاستاذين أحمد أمين وأحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تتابع الخطأ فى العدد الترتيبى بعد ذلك الى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة – وحقيقتها أنها الليلة الثانية عشرة ، لكننا نؤثر الابقاء هنا على الترتيب الموجود فى الكتاب لسهولة المراجعة .

العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهي ما نسميه بالروية حين تأتي مماثلة لحكم البديهة ، والسكينة العقلية هي في التئام الخواطر والأفكار ، وأما السكينة الالهية « فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم في الانتباه ، وكالاشارة في الحلم ، وليست حلماً ولا انتباهاً في الحقيقة » أي أنها سكينة روحانية .

وبعد ذلك ينتقل الحديث الى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص ، فكلها مشترك في الفطرة الواحدة ، وتأتي بعد ذلك أوجه الاختلاف ، فاليونان يميزهم الفكر ، والهند يميزهم الوهم (أي الخيال) والعرب ميزتهم الفصاحة ، والفرس السياسة ، والترك الشجاعة .

- وفي الليلة الخامسة عشرة حديث فلسفي عن « المكن » و « الواجب » حكى فيه التوحيدي عن ابن يعيش الرقي رأيه فيهما ، فقال : « الممكن شبيه بالرؤيا لا بدن له يستقل به ، ولا طبيعة يتحيز فيها .. وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة ، والظل ينقص ويزيد اذا قيس الى الشخص ، كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب ، فطوراً يزيد تشابها الواجب ، وطوراً ينقص تشابها الممتنع ، وطوراً يتساوى بالوسط » والواجب (ويقصد به في المصطلح الفلسفي ما هو ضروري الوجود) لا عرض له لانه حد واحد ، وله نصيب من الوحدة بدليل انه لا تغير

له « ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل » ... الخ . ثم ينتقل الحديث بعد ذلك الى نقطة فلسفية أخرى ، هى التفرقة بين العقل والحس ، فالأول ثابت والثانى متغير ، ومما قاله فى ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس ، وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل ، « الا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد » و « العقل يحكم فى الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصور الرفيعة » بالقياس الى الحواس التى تتعلق بالفاسدات البائدات المتغيرات ، وبعد ذلك انتقل الحديث الى مسائل لغوية .

– وفى الليلة السادسة عشرة حديث عن الجبر والقدر ، تعليقا على كتاب العامرى المعنون « انقاذ البشر من الجبر والقدر » .

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتاع والمؤانسة .

– ويبدأ الجزء الثانى بالليلة السابعة عشرة ، وفيها بحث لغوى عن الكلمات التى على وزن تفعـال (بكسر التاء) وتفعال (بفتح التاء) .

ثم ينتقل الحديث فيها عن اخوان الصفا ، ويقال ان هذا هو النص الوحيد الذى كشف لنا عن افراد هذه

الجماعة التي ألفت « رسائل اخوان الصفا » المشهورة فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ثم نقله القفطى ، وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن اخوان الصفا ، وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدى هنا : « وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله والمصير الى جنته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة .. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وكتموا أسماءهم ... » .

عقب على ذلك التوحيدى بذكر بعض الآراء فى تلك الرسائل ، ومنها ما يدحض قولهم فى أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحى الهى ، نسلم بها ولا نعللها ، وهى لا تخضع للمقادير ، ولا تشبه العلم الطبيعى ولا علم الهندسة ، ولا تحتاج الى المنطق ، وعند الاختلاف على شىء فى العقيدة لا نلجأ الى العلم ، فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ، والعقل وحده لا يكفى ولا بد معه من وحى ينزل على نبى ، والنبى فوق الفيلسوف .

ثم يورد أبو حيان رد المقدسي على هذا كله ، « فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحاء » ، ثم رد الحريري على المقدسي في مقارنة الشريعة بالفلسفة ، ويورد كذلك رأى أبي سليمان المنطقي القائل بأن الشريعة والفلسفة كلتيهما حق ، دون أن تكون احداهما مأخوذة من الأخرى ، وقد تجتمع الشريعة والفلسفة في رجل واحد وقد تظهر كل منهما على حدة .

وينتقل الحديث بعد ذلك إلى استطرادات في الحكمة وفي خصائص الحيوان وغير ذلك .

- والليلة الثامنة عشرة حديثها مجون وهزل .

- والتاسعة عشرة فيها أقوال حكمية قرئت على الوزير .

- والعشرون تشتمل على أحاديث نبوية .

- والليلة الحادية والعشرون تتناول موضوع الغناء والموسيقى ، فلماذا تؤثر الموسيقى في العقل ؟ وفيها حديث عن حاستي السمع والبصر .

- وأما الليلة الثانية والعشرون فقد دار الحديث فيها حول موضوع فلسفي عويص ، هو موضوع الجزئي والكلي وادراكهما والعلاقة بينهما ، ومن أبرع ما قاله أبو حيان في ذلك - نقلا عن أبي الحسن العامري -

« الكلى مفتقر الى الجزئى ، لا لأن يصير بديمومته محفوظا ، بل لأن يصير بتوسطه موجوداً ، والجزئى مفتقر الى الكلى ، لا لأن يصير بتوسطه موجودا ، بل لأن يصير بديمومته محفوظا (أى أن الكلى بحاجة الى الجزئى ليتجسد فيه وجوداً فعليا ، والجزئى بحاجة الى الكلى ليدوم) ».

ومما قاله فى الكلى والجزئى ايضا أن « ما هو أكثر تركيبا فالحسى اقوى على اثباته ، وما هو اقل تركيبا فالعقل أخلص الى ذاته » .

وفى هذه الليلة ايضا حديث عن مشكلة الواحد والكثير ، وهى مشكلة معروفة فى الفلسفة ، وذات علاقة بالكلى والجزئى ، وفيها ايضا حديث عن أنواع الخطاب : خطاب العاقل للعاقل ، وخطاب العاقل للأحمق ، وحديث عن « العادة » ، وحديث عن الفقر ومعناه الصحيح ، فليس الفقر فى قلة المال ، بل هو فى كثرة الشهوات وان كثر المال .

— وفى الليلة الثالثة والعشرين روايات عن النبى عليه السلام .

— وفى الرابعة والعشرين أحاديث عن الحيوان والنبات : أين تكون مواطنها وما طبائعها ؟ ثم حديث عن الروح والنفس .

وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فمناظـــارة بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ، فبعد مقدمة طريفة عن كون الحديث فى موضوع النظم والنثر كلامـــا على كلام ، « والكلام على الكلام صـعب ... لأنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق ، وكذلك النثر والشعر » .

ثم رويت آراء تحبذ النثر وتفضلـه على الشعر : فالنثر أصل والنظم فرعه ، والكتب المنزلـة منثورة ، والوحدة أظهر فى النثر منها فى الشعر ، والنثر طبيعى والشعر صناعى ، وترتيب الكلام فى النثر لا يحتاج الى تكلف ، والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منثورة ، والأحاديث النبوية نثر .

وبعد ذلك رويت آراء فى تفضيل الشعر ، فله صناعة تقتصر على القلة ، أما النثر ففى وسع الجميع ، والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحـو واللغـة لا توجد الا فى الشعر والشعراء هم الذين ظفـــروا بجـــوائز الخلفاء .

وتختتم المحاورة برأى معتدل ، فلكـل من الشعر والنثر فضائله ، ولكل منهما بلاغة .

- وفى الليلة السادسـة والعشرين مجموعة من أمثلة .

– وتروى الليلة السابعة والعشرون مجموعة من قصص ونوادر تدل كلها على اثر المصادفات فى مجرى الحياة ، ثم تحكى عن الفال والطيرة ·

– وفى الثامنة والعشرين ذكر طائفة من أصحاب الطرب ·

– وفى التاسعة والعشرين وفى الثلاثين بحوث لغوية ·

– وفى الحادية والثلاثين كلام فى الحرب ، وكلام فى العقل والجنون ·

وبهذه الليلة ينتهى الجزء الثانى ·

– ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعام والطعمين ، فيدور الحديث فى ذلك خلال ثلاث ليال : بقية الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين ، والثالثة والثلاثين ·

– وفى الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم فلا بد للحاكم العاقل أن يفتح صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى كالعلاقة بين الوالد وولده ··· الخ ·

– وفى الخامسة والثلاثين حديث فى الجبر والاختيار ، وفى الحب والشهوة ، وفى النفس والروح

– وتدور الليلة الليلة السادسة والثلاثون حول بحوث لغويـــة .

– والسابعة والثلاثون حول بعض الصفات الخلقية وتحديد عناصرها المكونة لها .

– وفى الثامنة والثلاثين ، والتاسعـة والثلاثين ، والأربعين نوادر وأحاديث فيها فطنة وسرعة خاطـــر .

ويختم الكتـاب برسـالتين يوجههمـا أبو حيان التوحيدى الى الوزير ، ثم برجاء يوجهه الى أبى الوفـاء المهندس متوسلا مستغيثا .

نصوص مختـــارة

١ – فى خصائص العرب :

ان العرب أهل بلد قفـر ، ووحشة من الأنس احتاج كل واحد منهم فى وحدته الى فكره ونظره وعقله ، وعلموا أن معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء بسمته ، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك فى رطبه ويابسه ، وأوقاته وأزمنته ، وما يصلح منه فى الشاة والبعير ثم نظروا الى الزمان واختلافـه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيـا ، وقيظيـا وشتويا ، ثم علموا أن شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الأنواء ، وعرفوا تغير الزمـان

فجعلوا له منازله من السنة ، واحتاجوا الى الانتشار فى الأرض ، فجعلوا نجوم السماء أدلة على أطراف الأرض وأقطارها ، فسلكوا بها البلاد وجعلوا بينهم شيئاً ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم فى الجميل ، ويتجنبون به على الدناءة ، ويحضهم على المكارم ، حتى أن الرجل منهم وهو فى فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئاً ، ويسرف فى ذم المساوى فلا يقصر ، ليس لهم كلام الا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأدبون ، بل نحائز (أى طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : انهم أعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر وذكاء الفهم » (ج ١ ـ ص ٧٢) .

٢ ـ صور لبعض رجال الفكر فى عصره :

(وردت فى حديث الليلة الثانية)

... أما شيخنا أبو سليمان (المنطقى) فانه أدقهم نظراً ، وأقعرهم غوصاً ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجراءة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز .

وأما ابن زرعة فهو حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة ، ليس له في دقيقها منفذ ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزع فكره في التجارة ، ومحبته في الربح ، وحرصه على الجمع وشدته على المنع لكانت قريحته تستجيب له ، وغائمته تدر عليه ، ولكنه مبدد مندد ، وحب الدنيا يعمي ويصم .

وأما ابن الخمار ففصيح ، سبط الكلام ، مديد النفس ، طويل العنان ، مرضى النقل ، كثير التدقيق لكنه يخلط الدرة بالبعرة ، ويفسد السمين بالغث ، ويرقع الجديد بالرث ، ويشين جميع ذلك بالزهو والصلف ، ويزيد في الرقم والسول فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص ، وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف ، وما يصفيه بالصواب ، يكدره بالاعجاب ، ومع هذا يصرع في كل شهر مرة أو مرتين .

وأما ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من اتائهم ، لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجدل وهو بالمقبع أشبه ، والى طريقة المدعي أقرب ، والذي يحطه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلادة فهمه ، والآخر حرصه على كسبه ...

وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعيي بين أبيناء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام « صفو الشرح لا يساغوجي ، وقاطيغورياس » من تصنيف صديقنا بالري ، قال : من هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامري ، وصححه معي ..

فقال (الوزير) : يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ! قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي ، مملوك الهمة فى طلبه والحرص على اصابته ، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر ابن حيان ، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت فى حاجاته الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق ، وأوطار فى غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العامري خمس سنين جمعة ، ودرس وأملى وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسالة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد ، فهو زكي حسن الشعر نقي اللفظ ، وان بقي فعساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع

كلفه بالكيمياء ، وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وإيثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلى به والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه ... » .

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٤٥

ISBN — 977 — 01 — 4416 — 9